افراحنا ومآتمنا

بقلم حضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

الفرح والحزن عاطفتان إنسانيتان ، تنفعل بهما النفس انفعالا طبيعيا حين تتوافر أسبابهما دون تفكير سابق أو تحضير . ومن ثم فهما محك لمعرفة أخلاق الشعوب والكشف عن طبيعتها الكامنة ومبلغ رقيها فى فهم الحياة .

ونحن فى مصر لا نفرح إلا على نظام خاص ، ولا نحزن إلا بطريقة معينة ، كأنها مراسم وشعائر لا يجوز الإخلال بها أو الخروج عنها ، مما يجعل الفرح أو الحزن مظهرا من المظاهر الجوفاء لا تعبيرا عن عاطفة صادقة ، ومما يكلفنا فوق التزوير فى حقيقة عواطفنا تكاليف مادية ذات أثر سيء فى حياتنا الشخصية والاجتماعية .

مفروض حين أريد تزويج ابنى أو بنتى ، أن أفرح وأن يشاركنى فى هذا الفرح كل من يشاركنى الشعور بأسبابه ، كأفراد أسرتى وأسرة أصهارى مثلا و بعض الأصدقاء المقربين.

فما الذى يدعو حينئذ إلى دعوة عدد كبير من الناس الذين لا تربطنى بهم صلة ، أقيم لهم المآدب الفاخرة ، والسرادقات الفسيحة ، والأنوار المتلألئة ، وأدعو المطربين والمطربات لإسماعهم ، وأتكلف بسبب هذا كله نفقات قد أقدر عليها فتنقل ميزانيتى ، أو لا أقدر فأقترضها وأرزح تحت عبء الدين من أجلها شهورا وسنوات ؟

ومن أعجب المظاهر أن الأثرياء والمتوسطين يظنون أن أفراحهم لا تتم إلا بدعوة "الحكام" فإن كانوا فى الريف فالمدير ووكيله والحكمدار والمأمور والقاضيان الأهلى والشرعى ورئيس النيابة ومهندس الرى ومفتش الصحة أو طبيب المركز ، وإن كانوا فى المدينة فالوزراء والمحافظ ووكلاء الوزارات وأمثالهم ، ممن لا يعرفونهم من قبل ولا تربطهم بهم رابطة قرابة ، ولكنهم يستشفعون لديهم ليحضروا بكل الشفاعات والوسائط حتى تستكمل الحفلة زينتها وتتم لها قيمتها . فكأن هؤلاء "الحكام" هم "الطقم" الذى لا بد منه لاستكمال مظاهر الفخامة والثراء وحتى تذكر الصحف فى صباح اليوم التالى أنباء الحفلة والمدعوين إليها والمطرب الذى غنى فيها ، وعلى قدر مقام هؤلاء جميعا يكون تقدير أصحاب الحفل فى أعين الناس . [illegible]

وكل هذا عجيب ، فهؤلاء المدعوون الكبار الذين يذهبون فى الغالب كارهين تحت تأثير أصحابهم من الشفعاء ، يملكون فى حياتهم العادية أمثال ما يعده لهم صاحب الفرح

من طعام شهى وشراب فاخر وسماع راق، فلا جديد عليهم فى هذا الإكرام؛ بينما المحرومون الذى يعتبر هـذا كله جديدا عليهم وذا قيمة كبيرة فى حياتهم لا ينالون منه شيئا وكان خيرا و بركة لو أن صاحب العرس انتهزها فرصة لإطعام اجياع وكسوة العرايا وإدخال السرور على قلوب الفقراء فيلهجون بالدعاء له و يذكرونه بالحمد والشكر اللذين لا يظفر بهما غالبا من المدعوين الأغنياء والموظفين الكبار .

أو كان خيرا و بركة لو أنه وفر كثيرا مما ينفقه فى هذه المظاهر الجوفاء فقدمه هدية باقية للعروسين تنفعهما فى حياتهما ، وتكون بذرة رصيد لهما وذكرى دائمة لقرانهما .

غير أن هذا — فيما يبدو — لا يضمن الضجة والإعلان الفارغ ،وهما أقصى ما يرجوه أصحاب الأفراح، فليس المهم فى نظرهم أن يفرحوا بل المهم أن يعلنوا عن هذا الفرح وعن أنفسهم لهذه المناسبة .

ولا تقل عن نفقات ليلة الزفاف نفقات حفلة العقد فى شراء علب الحلوى التى تقاس قيمة العروسين وأهليهما بأثمانها و بمستواها ،والتى تعدّ مفخرة بين المعارف وغير المعارف، وتصبح حديث المجالس والسهرات .

أما "جهاز العروس" والمبالغة فيه فتلك مشكلة بلغت أقصى حدود التعقيد ، و بات "الجهاز" نذيرا بالدين الفادح والضيق الشامل لآباء الفتيات ، كما أن المهربات نذيرا للشبان وآبائهم بأبهظ النفقات !

وهـذا البذخ وذلك الإسراف لا يقتصر أثرهما على إثقال الكواهل واضطراب الميزانيات ، ولكنه يتعداهما إلى التنفير من الزواج فيخلق مشكلة اجتماعية رفع أصواتنا بالشكوى منها ، ولكننا نتهيب الإقدام على دفع سبب من أهم أسبابها .

أعرف كثيرا من الشبان لا يقف فى طريقهم دون الزواج إلا الخوف من "علب الملبس" و إلا نفقات "البوفيهات" الضخمة والسرادقات الفخمة ، وأجور المطربين والمطربات ،وذلك كله بعد المهر الباهظ الفادح الذى يبدو فى صورة غرامة حربية يفرضها عليهم آباء الفتيات !

غير أن هؤلاء الآباء معذورون من جهة أخرى لأن "الجهاز" سيكلفهم أضعاف المهور ، ونفقات العرس ستزيد على ما يقوم به "العريس" . وهؤلاء وهؤلاء ضحية واحدة لحب الظهور وضجة الإعلان والتقاليد السخيفة ،والمجتمع ضحية كذلك لهذه المظاهر الجوفاء !

على أنه إذا جاز أن تكون الأفراح مظهرا للبذخ ، وفرصة للضجة ، وميدانا للإعلان — وكل هذا مستقبح مكروه — فإن وقار المآتم وجلال الموت ورزانة الحزن يجب أن تنزه عن هذا العبث الذى نراه فى المآتم والجنازات مما يدعو إلى السخرية الأليمة ،و يجعلنا مسخا مشوها بين أمم العالم التى تقدر حرمة الموت وجلاله .

وإلا ففيم تنحر الذبائح ويحب الطباخون وتمد الموائد وتوزع السجائر وتختلط مظاهر الذبح والطبخ والأكل بمظاهر الأفراح . والموت وراء ذلك كله يجعل بسواده جو الأسرة ؟

وأى ذوق إنسانى هذا الذوق الذى يجعل من ليلة الموت سببا لإقامة وليمة ، ويخلط بين الدموع المترقرقة فى العيون واللحوم والأطعمة الهابطة فى البطون ؟

وفى ذلك الإعلان فى الصحف والطبطبة بأسماء أقارب الميت وإرسال البطاقات السوداء لبعض الخواص دعوة للاشتراك فى تشييع الجنازة حتى إن نصب أحد أقرباء المتوفى لو نسى اسمه فى الإعلان ، ويصحح هذا الخطأ الجسيم فى اليوم التالى فى الصحف التى نسيته أو أخطأت فى ضبطه . وفى يوم سير الموكب بحيث يمر بعدة شوارع وميادين تزدحم عادة بالمارة والمقاهى كميدان الأوبرا وشارع سليمان باشا حين لا تكون الطريق الطبيعية من البيت إلى مدفن مارة بهذه الشوارع ؟

وفى سرادقات الفسيحة والكراسى المذهبة والمصابيح الكبيرة والمقرئ الشهير والمقرئون يتلقون آلاف المعزين ويحيونهم إن لم يكن للعزاء فللتسوع وللصيت بعد ذلك والسمعة ؟ .

ثم فى إعلانات الشكر للمعزين وهى تكاد لا تخلو من عبارة " ونخص بالذكر حضرات أصحاب الدولة والمعالى فلان وفلان . . " إلى آخر هذه الأسطوانة المحفوظة ؟ فى هذا كله إن لم يكن للتظاهر والإعلان هما كل قصدنا من المأتم ، وهما اللذان نتكلف فى سبيلهما ما نتكلف من باهظ النفقات علاوة على مجانبة الذوق الإنسانى فى المحافظة على وقار الموت وجلال الفجيعة ؟

لقد أصبح للوزراء والعظماء " طقما " فى تشييع الجنائز كطقم حملة القهوة وسواهم ممن يمشون فى مواكب الموتى ، وهؤلاء وهؤلاء حين يهم للإعلان واستخدموا لعرض واحد لا يليق بالموت الموقور .

لقد كان لنا أن ندرك اعتداءنا على الذوق السليم فى هذه المظاهر المحجلة فى الأفراح والمآتم على السواء ، فلسنا نحن ننتهز الفرصة — ولو كانت فرصة موت — للإعلان عن أنفسنا . ولسنا مهرجين نعرض أنفسنا على الجماهير فنزور فى عواطفنا الطبيعية التى يجب أن تظهر بجميلة فى صدقها وبساطتها .

وهناك بعض من الرجاء فى أولئك الذين يعقدون القران ويزفون العروس إلى عروسها فى حفل قاصر على أفراد الأسرتين وأصدقائهما ، وفى أولئك الذين يكتفون بالعزاء فى المدافن . ولكن حتى هؤلاء وهؤلاء لا يزالون فى حاجة إلى استكمال هذا الذوق الجميل بترك الإعلان . ولعل فيهم قدوة لنا جميعا ، ولعلنا نثوب إلى صدق الطبيعة وبساطتها الجميلة ما

على جمال الدين